الثقافة العراقية وتبدل وظائفها

فاطمة المحسن

هل أتيحت للمثقفين العراقيين فرصة نقد مجتمعهم؟ وهل لنا أن نتخيل إن ثقافتنا جديرة بهذه المهمة؟. هذه الاسئلة التي تثار بين آن واخر، تقتضي تحديد مفهوم النقد فباحث مثل علي الوردي قام قبل أزيد من اربعة عقود بتسليط الضوء على أنماط من التفكير والسلوكيات و العادات المهيمنة. بيد ان الذي يشغل القارىء العصري هو ما للثقافة من قدرة على برمجة أدوات معرفتها، وطرق تفكيرها كي تتعدى الإدانة والنقد،لتتجه الى وظيفة جديدة على المستوى الانطولوجي، وظيفة بين مقترحاتها تحويل الظاهرات الاجتماعية ذاتها الى موضوعات متجددة للمعرفة. من الصعب ان نبدأ من حيث إنتهت إليه الثقافة الغربية وهي تقطف ثمار منجزها العلمي، ولكن ربما تساعدنا تلك المنجزات النظر الى مواضيع "معرفتنا" على انها موضوعات للوعي. وكي لانقع في اسار اللغة الجاهزة التي يمكن ان يقال فيها أي كلام من منطلق الامنيات، نقول ان الذي يشغل أكثر المثقفين العراقيين اليوم هو الاحساس بالهول، بضجيج العالم المتحرك الذي لايكف عن نصب فخاخه للحياة فالمثقف الان في زمن معلق،عصبي ومستفز. هذا الزمن الذي تعلن فيه الثقافة العراقية تسليمها بالعجز امام مرحلة مضت، عليها الاعتراف بأنها كانت جزءاً من وعيها. وكي تدخل كلاعب للنظر باشكالياتها،فمن باب أولى أن تبحث في ذاكرتها هي، وفي لغة هذه الذاكرة التي شكلت نمط التجربة الكتابية التي نتجت عنها. ليس المهم الان أن ندين قصيدة تقدم بها شاعر الى طاغية وكسب منها قصرا او ضحك فيها على نفسه،على أهمية تلك المراجعة إنسانيا. بل المهم أن نعرف ماهو المكبوت في ثقافتنا السائدة،وماهو المضمر من العواطف والاهواء التي تحرك تصور تلك الثقافة عن نفسها، وعن نوع القارىء الذي تتوجه اليه. اننا هنا أمام مأزق ذاكرة ولغة وخيال، وإن سلمنا بأن الخيال معرفة،وهي كلمة تقتضي إستثناءات كثيرة،فان تلك المعرفة لاتكتسب بالقراءة والتعلم وحسب، بل بما للجماعة من موهبة إنتاج كاتب يعي تجربتها على نحو موضوعي، ويدخل في سياقها، أي

يستخدمها في تنشيط خياله، وفي إبتكار وسائل نقده لها.
في هذا الوقت الذي ترتبك فيه الكتابة، لانها تخاف التحول الى دعوة وخطاب تعليمي، يصبح من الأجدى أن نتلمس أية خطيئة يرتكبها الكاتب عندما يرى الى نفسه على انه أداة تغيير، تلك الكلمات الرنانة التي رددها المثقفون من دون الالتفات الى خطورة ان تصبح المعرفة مطية الأقوال النفاجة.
والحق ان تلك الديباجات أتت بالضرر على الثقافة ذاتها، لانها بعد أن سلبتها قدرة المشاركة في التأثير،حولتها الى أداة للسخرة والتوظيف. ومن عجائب هذه المعادلة ان المثقف العراقي لم يتردد يوما في التخيل بانه يقوم بمهمة البناء الاجتماعي، او انه يقدم "خدمة نبيلة" الى مجتمعه. لقد مضى ذلك الزمن الذي كان فيه المثقف مجرد "برغي" في ماكنة الحزب، حسب أقوال لينين في كتابه (الأدب والفن)، مثلما مضى زمن المثقف الرائي والمستبطن والسابر لاغوار الكون، حسب اشراقات الفرنساويين. ولكن داخل كل مثقف عراقي في أي مكان حل، يقبع الضدان، ولعل التوتر بينهما يسم طبيعة النتاج الثقافي، لابتحولات اغراضه، بل بالصراع بين شكلانية ورطانة في توظيف المصطلحات وفي تمجيد الذات والايغال في الاستماع الى هذيانات تعاليها، وبين تلك المخيلة الملصقة بالحياة اليومية، والتي لاتملك فكرة عن تشكيل صورة فنية لهذه الحياة، صورة قادرة على نقضها، او إكتشاف هشاشة عواطفها وعطوب مجسات حساسياتها. للثقافة العالمية اليوم ملامح شديدة التحرك، وهي تبدأ بكتب الجيب وأفلام المغامرات والواقع الافتراضي، ولاتنتهي بالروايات التي تطيح بالخيال الى وهاد الفلسفة والعلم والاساطير، وليس بين هذه وتلك من حدود واضحة سوى كونها حصيلة تجارب تتفاعل مع قارىء متطلب وملول، مع حرية لاتحدها حدود ولاتسورها معرفة مقيدة بأثقال مهمتها. الطابع المتحرك للثقافة العالمية وقدرتها على نقض مسلماتها ونفي قناعاتها، تعتمد على برمجة ذاكرتها ولغتها، وخلق منافذ جديدة للاختبارات تفضي الى تبدل في وظائف المعرفة ذاتها فلم تشفع لعصر الانوار كل منجزاته العظيمة حيث نشأت تحت ظلال عقلانيته حضارة الغرب بأكملها فتعرض الى حملات نقد لم تكف عن إستهدافه الى يومنا هذا، مثلما لم يشفع لهيغل ماشاد من نظام معرفي استهدت به عقول كبار المفكرين والفلاسفة، فسخر منه فيلسوف معاصر في كتاب توج حملات النقد والنقد المضاد التي تعرضت الى منجزه. وهكذا يكون بمقدور الثقافة تحريك الماء في طاحونتها لو ملكت حرية تغيير وقلب نظمها المعرفية،وتجاوز طواطمها وايقوناتها.
لقد تحولت الهيمنة الشعرية في ثقافتنا العراقية الى مشكلة لانقر بوجودها، وبما تسببه من عجز في ميادين كثيرة بما فيها البحث والرواية. وهذه الهيمنة لاتساعد على تطوير صيغ الاستجابة الى الواقع وطرق التفكير به على نحو عقلاني، لانها تموضع الذات العارفة في موقع قد يتبدل من عصر الى آخر، ولكنه لايتغير من حيث الجوهر. وفي قراءة تاريخنا الثقافي سنجد لسدنة اللغة الذين جلدوا الناس بـ"قل ولا تقل"،مكانة لاتنافسها سوى مكانة

عن مفردة مهجورة كي ينتزع التصفيق من جمهوره الامي. هؤلاء الابطال حلوا في ذاكرة تشكو من فراغ الابداع، ومن عجز الكتابة عن تخطي الصيغ النمطية للادراك والتصورات فالعربية بسبب قدامتها في عرف العرب تحولت في فترات كثيرة الى عائق امام تطوير المخيلة وتنشيط الذاكرة. وهي في بلد مثل العراق كانت أشد خطورة منها على ثقافة بلدان عربية اخرى مثل المغرب او مصر مثلا،فنزعة الهيمنة الاجتماعية في العراق، وسيطرة المراكز التي طبعت المجتمع حتى مجتمع الافندية والتجديديين بطابعها، جعلت التبدلات في صيغة استخدام اللغة شكلانية، مثلما شجرت معاركنا النقدية منذ مطلع القرن العشرين حول اللغة وليس حول مواضيع أهم منها فالاعتراف الاجتماعي بالثقافة يتقصد ان يجعل من الثقافة مرآة لظاهره،لأنها تنتمي إليه وتسايره فهي أضعف من ان تتمرد عليه او تنفصل عنه.
ان مكانة باحث نادر مثل جواد علي لاتوازي في تقليدنا الثقافي،سواء كان شعبيا او نخبويا،مكانة شاعر مثل الجواهري او السياب او البياتي، وتلك مشكلة لانعي أبعادها، ونحن نعيش داخل تلك المنظومة المعرفية التي جعلت من ثقافتنا إبحار في اللغة وهذا الابحار لايتأمل في اللغة على انها وعي يتركب على مناهج للاستقراء، بل بما تقدمه الشعرية الرعوية من تجليات مشتتة تأخذ بجماع القلوب. لهذا نبحث في كتب الشعر عن قضايا التغيير الاجتماعي التي تناولها الشعراء،

الاكاديمية.
من الصعب ان نقول ان أزمنة المعرفة في العراق متشابهة، ولكن زمان لهيمنة الشعرية إمتد الى يومنا هذا،فأبرز كتابنا شعراء، وهم أمراء الكلام حسب مايقول شاعرهم. ومع ان لجيل لجديد قد هجر الشعر الى القصة او الرواية، بيد ان تقاليد الكتابة في الاجناس غير الشعرية لم تزل تعاني من تبعات المرحلة الشعرية، وهي تحتاج الى إشباع في منجزها كي يصبح لها جمهورها.
منذ الثمانينيات وظفت القصة والرواية لأغراض سياسية، واقتحم عالمها القادة والعسكريون، وأعمال هؤلاء على علاتها، تشخص في الثقافة العراقية مادة ثرة لقراءة التاريخ. لعل في روايات صدام حسين والضباط والعرفاء والجنود الذين شاركوا في الحروب،وروايات مدوني أخباره وسيرته، يشخص عالم متنوع فيه الكثير من الشواهد التي لاتمحى من طرائق للتفكير،وأساليب توظيف المعلومات، والحكايا الشعبية والاساطير،وهي كلها تفعل في الذاكرة العراقية بما يوازي فعل الكورس في كواليس عالم الثقافة الاخرى التي تتحرك تحت ظلال تلك الاشباح. انها مدونات تساعد القارىء على الاقتراب من سوسولوجيا المعرفة زمن القمع. فالشعراء الشعبيون وأغاني الغجر والبادية ومناحات الارياف وعواطف الاغاني البغدادية التي شكلت "تراثنا الشعبي" وأمن عليها الشارع،هي التجلي الممكن لزمن الحروب وتردي التعليم والتفكك الاجتماعي والقيمي. وكلها قد لاتشتغل على نحو مباشر في الثقافة قدر ماتتداخل في الذاكرة اليومية لها. الحاجة الى تفكيك منظومتها وقراءتها على نحو موضوعي يتطلب الوقوف من مفهوم العنف والقمع في العراق على نحو لاينحصر بمهمة إدانته، و التعالي عليه، بل بالدخول فيه من أزمنة مختلفة للثقافة ذاتها. ولعل هذا المدخل بين مقترحات ربما تفضي طبيعة التفكير فيها الى تبدل وظائف المعرفة التي تحتاجها عدة النقد الحديث.

ماذا تعني الشهادة الاكاديمية للمبدع؟

عبد الحسين بريسم

سادت بين المبدعين العراقيين قديماً علاقة شبه متوترة بالحياة الاكاديمية، وحتى مع الاكاديميين انفسهم، وعلى نحو ما طوروا افكاراً غريبة مفادها ان الابداع ينأى عن البحث الاكاديمي المنظم، ولا الحصول على شهادة اكاديمية عليا وانه ينتمي الى مدار خاص به. لعلّ هذه النظرة ما زالت سائدة، يغذيها عدم وجود تفاعل مثمر بين المبدعين والاكاديميين، وسيادة النمط الشعري في الحياة الثقافية، فضلاً عن قناعات ناتجة عن تجربة فما ان يحصل المبدع على شهادة اكاديمية حتى يميل الى العزلة والركون الى شهادة اكاديمية. ولاسيما اننا نجد اتجاهاً لدى عدد من المبدعين للحصول عى تدريب اكاديمي، او في الاقل الحصول على شهادة عليا. ننشر هنا آراء عدد من المبدعين الحاصلين على شهادات اكاديمية عليا.

هي جهد ساند يخدم العملية الابداعية بالضرورة

د. صفاء صنكور
اكاديمي واعلامي

نحن هنا ازاء نسقين. نسق الانتاج الابداعي ونسق اللغة العلمية الواصفة. والشهادة تدخل في اطار النسق الثاني اي بعد ان يخوض الدارس المبدع تدريباً عملياً لضبط وتحديد لغة واصفة تندرج على وفق قوانين علمية ثابتة، يحاول الدارس ان يخرج منها بنتائج محددة في دراسة الظاهرة الابداعية نفسها.
وهذا الجهد العلمي سيصب بالضرورة في توضيح آليات الانتاج الابداعي وقوانينه. من هنا فهي جهد ساند سيخدم العملية الابداعية بالضرورة ويسهم بازدهارها والكشف عن اولياتها ومحركاتها من هنا فهو انتاج علمي شارح ومفسر يخدم العلمية الابداعية في النهاية.
لاشك ان العملية الابداعية مصادرها مختلفة عن اللغة العلمية وكشوفها ولكن هذه اللغة بتسليطها الضوء على العملية الابداعية بشروحها وتفسيرها لقوانينه تسهم في اغناء هذه الظاهرة وترتقي بها.
وعلى وفق هذا المفهوم اجد ان خوض المبدع غمار التجربة الدراسية المنهجية والعلمية هو اغناء لتجربته الابداعية وتعزيز لمنجزه الابداعي، فضلاً على انه سيقدم كمبدع اغناء للتجربة الاكاديمية قد لا يتوفر للدارس الاكاديمي التقليدي.

هناك هجرة معاكسة من الوسط الثقافي الى الوسط الاكاديمي..

جواد الزيدي
ناقد تشكيلي
وطالب دكتوراه

لقد نهلنا معرفتنا بمجالاتها المختلفة من اساتذة جامعة اغنوا الجانب الثقافي والمعرفي الانساني بعيداً عن جغرافيته وزمانيته، وهو ما كنا نعتبره معقولاً ومنطقياً، ولكن في الوسط الاكاديمي والثقافي العراقي الامر مختلف جداً، فأن الهجرة قد تكون معاكسة اي من الوسط الثقافي الى الاكاديمي ولم يحدث العكس فهناك مبدعون في المجالات كافة الشعر والقصة والرواية والفنون تأسسوا خارج الوسط الاكاديمي وجاءوا اليه يحملون معهم همومهم الابداعية وتطلعاتهم التي صقلت من خلال المناهج العلمية والبحوث والقراءات، ولكن المشكلة الحقيقية لم يترحل اي احد من الاوساط الاكاديمية الى الاوساط الثقافية. اذا ان مجمل همومهم كانت بالحصول على تلك الشهادة لاغراض اجتماعية لتعلق على الجدار او تمنحه سلطة معينة في حقل التدريس مثلاً، بعيداً عن الهم الابداعي الذي يحيا مع المبدع في تأسيس خارطته الثقافية ومنظومته المعرفية، ويعد الشهادة هي البداية الحقيقية للوثوب الى فضاء ثقافي اكثر تاثيراً واهمية، واشير الى احد الاساتذة في حقل التشكيل عندما قال يوماً انني بدأت بحرق كل تأريخي ما قبل الدكتوراه لكي ابدأ بداية جديدة وخطوة واثقة على صعيد الابداع في المجالين التنظيري والتطبيقي فعلا ذلك بوجود هموم ثقافية وابداعية قد يأمل المبدع من تحقيقها وقد نجد العكس تماماً، فبعض المحسوبين على الثقافة والابداع من طلبة الدراسات العليا كانوا الاكثر فاعلية في مرحلة الاعداد للشهادة وقد تنطفئ شعلتهم

تماماً بعد التخرج ونيل الشهادة ليبدأ

التاديات بأهمال الجوانب التي اوشك ان يتعلمها وقد تواصل الكثير من المبدعين في حقل الثقافة العراقية بعد تحصيلهم العالي ولكن تنطبق عليهم الشروط الابداعية التي تحدثنا عنها، فهناك جيل طه باقر، على جواد الطاهر، علي الوردي، مالك المطلبي، كمال مظهر، صلاح القصب فضلاً عن جيل الشباب الذين يملكون الساحة الثقافية الآن من حملة تلك الشهادات وهم كثر.

قد تشكل الشهادة العليا عبئاً على المبدع

د. ميمون الخالدي
ممثل واكاديمي

ليس هناك علاقة قسرية بين الابداع والشهادة،فحقل الابداع يتفجر حينما تتوفر له ظروف ذاتية وموضوعية تحيط بالمبدع سواء حصل على شهادة عليها او لم يحصل باعتقادي ان الشهادة من ناحية تشكل عبئاً على المبدع، نفسه لكنها ايضاً تحركه الى بحث مستمر عن الابداع.
لا تصنع الشهادة من الفاشل اصلاً مبدعاً، وعليه فان هذه الاشكالية تحتاج الى استقرار ورؤية واضحة لدى من يعملون في حقل الابداع،بحيث لا يجعلوها عبئاً يستندون عليه ولا يحاولون من خلالها التسيد الفارغ. فعلى سبيل المثال لم تنل مني هذه

الشهادة سوى وجودها الاكاديمي

خارجها فبقيت ممثلاً لم انقطع عن حقلي المسرحي بل ان اهم اعمالي الابداعية حصلت اثناء حصولي على الشهادة.
الشهادة الجامعية لا ترتديني وتستر عوراتي. الابداع بحث واكتشاف واختراق للمألوف.. البحث عن الحقيقة. لان الجمال عالم فسيح وعميق وواسع يعتمد على الطاقة الابداعية لدى المبدع.

يجب على المبدع ان لا يعدّ الشهادة نهاية المطاف..

د. عواطف نعيم
ممثلة واكاديمية

يجب ان تعزز الشهادة العليا الجانب العملي على الجانب النظري، وهي في الحقيقة مسؤولية جسيمة،كما انها جواز مرور للمناصب والاقناع والتأثير في تكريس حالة معينة ذات افق ثقافي عال لتطوير وتعزيز الجانب التطبيقي في تجربة ثقافية وفنية وعلمية.
وهي ضرورة يفرضها تطور الحياة وتطور المعارف الانسانية والعلمية بكل تنوعاتها.
الشهادة العليا تعيننا على الجانب المعرفي واراها ملزمة للمثقف لتحسين ادائه، لا ان يجعلها نهاية المطاف.
في احيان كثيرة يحدث لبعض المبدعين ما يشبه الغفوة فيسهو عن امور كثيرة تتطلبها حالة الابداع. ان حالة الابداع هي مزيج من التوقد والبحث والتنافس الايجابي والحرص على تقديم كل ما هو جديد. وحالة الغفوة التي تتسبب بها الاتكاء على اللقب العلمي واستسهال ما يقدم وهو ما نعني به السهو، وقد حدث فعلاً ان بعض المبدعين نكصوا على مستوى التجربة بعد حصولهم على اللقب العلمي. لكن ذلك وليس القاعدة،فما يحرك المبدع هو تعدد الالوان والاصوات في الساحة الثقافية والفنية ليكون حاضراً للعمل والبحث عن منجز حقيقي.

قصة قصيرة

النورس

ناظم مزهر

لحظة دخوله غرفة الفندق بخطوات وثابة، نظرت إليه قلقاً! دسّ حقيبته الصغيرة تحت السرير، وطالعني بهذه النظرة الحادة الثاقبة التي ينم لمعانها عن الريَب والحذر، وكأنها لغزٌ يشعُّ منه حزنٌ خفيٌ وعميق، ولم يخلع ملابسه، لا، ولا حتى حذاءه وهو يقرفص طاوياً جسده النحيل فوق السرير بهذه الأسمال، خرقٌ بالية لم تكن على مقاسه أبداً، فجاءت مهلهلة وكأنه مرتد ملابس إنسانٍ آخر أكبر حجماً منه .
ظللت لساعات طوال أسترق السمع إلى أنفاسه المنتظمة لعله ينام. لكن الشيء الغريب أن الرجل لبث صامتاً وكأنه لا يدرك أبداً أن عليه أن يتكلم. كنت أرقبه بطرف العين وهو يقبع متشبثاً بحافة السرير، ولعله بهذا التشبث الشديد، كان كمَنْ يخشى إنهياراً أقد يسفر عن افتضاح الأمر الذي وجد نفسه مدفوعاً إليه ولا حيلة له في ردّه.
فلما ران السكون عليه وأغمض عينيه، خيّل إليّ أنه غطّ أخيراً في نوم عميق، لكن تبين لي بعد حين، أنه لم يكن كذلك، إذ انتفضت روحه قبل جسده، وراح بين اللحظة والأخرى يمطّ أطرافه متثائباً أو متأوهاً في أنين، ثم ما يلبث أن يضم رأسه تحت أحد إبطيه كأنما يريد إخفاء حزنه أو يحاول أن ينام بطريقة ما، وربما هو يبكي دون علمي كطير مهيض الجناح.
إن هذا الوجع كثير ألمن أصيب قلبه بخسارة فادحة!
وهو بهذا القلق كأن ثمة شيء ملح يشغل باله فيلجأ إلى الاستلقاء على ظهره ويرفع ساقيه إلى أعلى، فلم أكن قادراً، وهو بالوضع هذا على إصدار أي صوت، فقد يجد في أبسط سؤال ما يستفزه ويمعن في إيذائه. من هذا آثرت الصمت وامتنعت عن توجيه أي كلام إليه ورحت أسارقه النظر بطرف العين، إذ بدا لي، على رثاثة مظهره، رقيقاً إلى أبعد حدود الرقة، فأردت أن أقوم بشيء آخر غير الكلام، كتغطيته بالملاءة البيضاء للسرير على سبيل المواساة والتهوين عليه من آلام اللحظات العصيبة التي تمر به وتمنعه من أن ينام ولو قليلاً قبيل انبلاج الفجر، لاسيما وأن دجنة الهزيع الأخير من الليل بدأت تخف في الخارج، وأن عتمة السماء راحت تتكشف عن زرقة باهتة بعد أن أطفأت الشوارع والبنايات مصابيحها واختفى من السماء الكثير من النجوم.
لكنه لم ينم. طوال الليل وهو يرنو بعين حائرة إلى باب الشرفة المزجج!
كان كمَنْ ينتظر شيئاً أو أحداً ما يأتي إليه من الفضاء الفسيح الذي تكشف فوق أعالي البنايات بلمعان ضعيف يحاول الفجر أن ينشره بصعوبة خلال غشاوة خفيفة من الضباب. لكن منذا الذي يأتي إليه من باب الشرفة في مثل هذه الساعة الندية غير بواكير شاحبة وباردة من ضياء الفجر الجليل؟
كان يبدو، في بعض من لحظات شروده العميق وكأنه ينسى أني معه في غرفة واحدة. فيغمغم ويحرك يديه ببعض الإشارات وينحني ليعبث بمحتويات حقيبته الصغيرة ليتأكد من وجود شيء ما، وهو بهذه العجلة التي جعلته يفقد سلطانه على نفسه، فخيّل إليّ وهو يفتح سحاب حقيبته أنه ينكأ جرحاً وأنه لا يستطيع تجميع شتات أفكاره وأن ما يعاني منه يعكر ما لروحه الشفافة من نقاء، ثم وهو يخرج من حقيبته ثوباً ناصع البياض، فتحه بين ذراعيه مبتهجاً لأول مرة، وكأن الثوب هذا انعشه وأيقظ في نفسه أحلاماً كانت متوارية.
وفجأةً، خلع ما عليه من أسمال وارتدى ثوبه بعجلة!
راح يذرع الغرفة جيئةً وذهاباً كمن يهيىء نفسه لأمر انتظره طويلاً، وتسللت إلى شفتيه ابتسامة باهتة وربما حازمة لأنه عقد العزم أخيراً. فانبسطت أساريره رغم صرامة ما اقدم عليه واصطبغ وجهه بحمرة كحمرة الشفق الغبش. فإذا وقع نظره عليّ أخيراً، القاه إلى نفسه وقد تبدى على وجهه، هذه المرّة، شيء من نفاد الصبر، وهو يطيل النظر إلى باب الشرفة المغلق وما لاح وراء زجاجها من ضياء.
كان زائغ النظرات، غارقاً في لجة شرود عميقة كمن طاش صوابه، أي بريق غريب هذا الذي أخذ يلتمع في عينيه وهو يغمر وجهه فيما تسرب إليه من ضياء؟! مما أضفى على سحنته، وهو بهذا الثوب الأبيض، سحراً خالصاً. كان ثوبه طويلا يتموج ويلتف حوله كلما إستدار مستعرضاً نفسه أمامي وفتح ذراعيه كأنما يطير. ولما قررت أن أكلمه أخيراً أشار لي، بسبابته التي وضعها أمام شفتيه، إشارة سكوت وتحذير بأن لا أحاول تعكير السرور الآتي إليه.
كان وهو يفعل ذلك لا ينظر إليّ البتة، بل يوغل في حملقته بالسماء. ثم أومأ لي برأسه أن انهض واقترب منه حيث كان يقف بمواجهة باب الشرفة، كما أومأ لي أن لا أحدث جلبةً قد تؤثر على ما يسمعه من أصوات ربما هي أصداء خطى الفجر الوئيدة. ولما وقفت إلى جانبه خيّل إليّ أنني لامست ريشاً ناعماً! وجفل جفول الطير الذي تطبع على وحدته، فأفزعه وجودي وكأنه شعر بي لأول مرّة منذ صعوده إلى الغرفة، لكنه عاد وشدني إليه بحنان الإنسان إلى أخيه الإنسان، وظللنا واقفين مثل صديقين حميمين مضى على صداقتهما زمن طويل، رغم أننا لم نلتق من قبل، فقد أظهر لي من العاطفة الطيبة ما أعجز عن شكره، هكذا وقفنا بتلك الهيأة التي تجمع الأصدقاء في صور الذكريات. ورحت أشرئب عنقي كي تصل ما وصلت إليه عنقه التي استطالت ونحفت كثيراً، كنت أفعل ذلك في محاولة مني لأرى ما كان يرنو إليه، ففي مكانٍ ما من السماء كان يمرّ سربٌ طويل من النوارس المرتحلة فجراً، حتى إذا ما تناهى إلينا صياحها، باعد ما بين ذراعيه كمن يفرد جناحين وهو بهذين الإكمامين الواسعين الأبيضين، وراح يدور حول نفسه في الفسحة الضيقة بين السريرين ويتهادى في أدائه لرقصة طقوسية، لا شك أن النوارس تؤديها بفعلٍ غريزي قبيل كل تحليق، وكأنه يفعل ذلك على أصداء لحن بهيج لموسيقى بديعة آتية إليه من مكانٍ ما غير الأرض، من السماء، وربما من الجنة نفسها.
وفجأة شعر لأول مرّة وكأنه بحاجة إلى الكلام!
أخذ يسوق كلاماً متقطعاً يخنقه الانفعال وهو يتحدث بصوت عال من فرط حماسته مخاطباً نفسه أكثر مما يخاطبني، قال إنه منذ الطفولة كثيراً ما كان يحلم بالطيران وانه كثيراً ما كان يستيقظ قبيل الفجر من حلم يرى فيه نفسه محلقاً مع سرب من النوارس العائدة إلى شواطيء الأوطان ومرابع الصبا الدافئة وانه كثيراً ما كان يجد نفسه في غمرة الحمّى للحاق بها وانه عندما يظل مستيقظاً حتى الفجر إنما ليسترق السمع إلى خفق أجنحتها وصياحها وهي تعبر درباً من دروب السماء وانه يجد نفسه توقاً للصياح مثلها حين يرى الفجر آت ويسرّ مثلها سرور من يعثر أخيراً على طريق للخلاص.
كان يتحدث كمن يلقي درساً حفظه من كثرة ما ردده طيلة سنين من الغربة التي فتكت بروحه في هذه الأصقاع المثلوجة!
ثم توقف فجأة ولم يزل مغمض العينين كمن كان يغتسل بما يتساقط عليه من ضياء الفجر ورجاني أن افتح له باب الشرفة وقد اتخذ وجهه لوناً جافاً لا حياة فيه، وحين فتحت له الباب وضع يديه على حافة الحاجز الحديدي وقرفص برهةً، فسمعت كيف طقطقت مفاصله استعداداً. لم يلتفت إلى الوراء ولم يقل شيئاً عن حقيبته التي ظلت منزوية تحت السرير كقطة خائفة من وحدتها.
رحت أنظر عالياً نحو ذلك الامتداد الأبيض في أفق الصورة التي عثرت عليها في الحقيبة، كان سرباً طويلاً من نقاط بيض لنوارس كانت تعبر سماء دجلة ذات صيف من أصياف بغداد